الأسرة كعامل فى التربية

للآنسة أسماء فهمى

الأستاذة بمعهد التربية العالى للبنات

لاشك أن البحوث القيمة التى سبقت كلمتى هذه فى موضوع الأسرة قد أظهرت بجلاء خطورة الدور الذى تلعبه الأسرة فى نواحى الحياة الهامة بصفتها عماد المجتمع والأصل فى تنظيم حياة الفرد والأمة . ومهما كثرت البحوث فى موضوع الأسرة فسيبقى فى كل وقت مكان لزيادة يزيدها كل باحث خصوصا فى بلادنا التى أهمل فيها لسوء الحظ شأن الأسرة فأصبحت فى حالات كثيرة بيت الداء وقد كان ينبغى أن تكون دائما معقل القوة والحيوية والأمن والرجاء .

ولعل وظيفة الأسرة فى التربية هى أخطر وظائفها وأجدرها بالعناية . فالتربية هى وظيفة الأسرة الأصلية ، والمنزل هو مدرسة الطفل الأولى ، وقد كان فى الأزمان الخالية المدرسة الوحيدة التى يتعلم فيها ما يتصل بالروح كالدين، وما يتعلق بالخلق والدفاع عن الحياة وكسب العيش . وبالرغم من تعدد المنشآت التربوية والتعليمية والمهنية التى تضطلع بعضها بالعناية بالطفل حتى قبل ولادته لم تفقد الأسرة بعد مركزها كأهم عامل للتربية ، ومهما بلغ من تقدم تلك المنشآت ونجاحها فى أساليب التربية والتعليم فلا يمكن فى الغالب أن تحدث من الأثر فى نفوس النشء ما يحدثه المنزل الصالح فى سنوات قلائل، كما أنه قد لا يتيسر لها مع كل مهارتها وجاهها وسطوتها أن تمحو تماما فى حالات كثيرة كل الآثار السيئة التى تنتج عن تربية أسرة معوجة فى مرحلة الطفولة .

أما الأسباب التى تجعل الأسرة أهم الوسائط التربوية وأخطرها فيمكن إرجاعها إلى الأمور الآتية :

كون الأسرة بيئة الطفل الطبيعية ، فالطفل هو محور الأسرة وبدونه لا يعتبر تكوينها كاملا، وفى الأسرة يحصل الطفل على أهم عوامل النمو الوجدانى بطريقة قل أن نجد لها مثيلا فى غير الأسرة . وأهم تلك العوامل المحبة الوالدية التى هى غريزة من أقوى وأجمل

الغرائز الإنسانية . تبدأ تلك الغريزة عملها عند المرأة وتظهر مكنون قوتها والطفل لم يزل بعد جنينا ؛ وإذ يولد الطفل تتضاعف قوتها فتفيض المرأة بالحنان والرحمة على وليدها ، وتجد تلك الغريزة إشباعا ولذة فى تدليل الطفل والعناية به والتضحية من أجل هناءته ، وقد لا يكون هناك ألم أعظم من الألم الذى تشعر به الأم عند فقد طفلها ؛ لأنها تصاب فى ناحية من نواحى نفسها هى من أشد النواحى حساسية ؛ وقد قضت الطبيعة بذلك لحكمة بالغة : فطفولة الإنسان أطول طفولة بين المخلوقات ، إذ بينما يكتمل نمو أكثر المخلوقات فى بضعة أيام أو بضعة أشهر لا يكتمل نمو الطفل قبل عدة سنوات ، وفى تلك المدة الطويلة يعتمد الطفل كل الاعتماد على رعاية أمه وحنانها ، وذلك الحنان الغريزى يضع الأساس لجعل الأم خير المربيات ، ولجعل البيئة المنزلية أفضل البيئات لتربية الطفل فى المرحلة المبكرة بصفة خاصة . وذلك لأن للطمأنينة التى يشعر بها الطفل فى ظل الحنان الوالدى أكبر الأثر فى نمو الطفل وسعادته . والطفل الذى يحوم الطمأنينة والسعادة التى تسبغهما عليه المحبة الوالدية يبدو معتلا شقيا وفى حالات كثيرة يقع فريسة للشذوذ الخلقى . وهناك حالات عدة يسجلها الأطباء النفسانيون تبين بجلاء أن فقدان العطف يؤثر تأثيرا سيئا فى نمو الطفل العقلى والوجدانى كما قد يضر بصحته ، بعكس الطفل الذى ينشأ فى ظل الحنان فهو يستقبل الحياة بثقة واطمئنان بينما يدفعه حرصه الطبيعى على الاحتفاظ بتلك الرعاية إلى بذل كل ما وسعه لإرضاء من يسبغون عليه العطف ، وبذلك يتجنب كثيرا من العيوب والأخطاء التى يشعر أنها ستؤدى إلى نفور من يعنون بأمره . ومن هنا تتبين أهمية العطف الوالدى للنمو والتهذيب الخلقى بصفة خاصة . على أن فائدة المحبة الوالدية فى هذه الناحية لا ينبغى أن تنسينا ما قد ينشأ عنها من مضار إذا لم يحسن توجيهها ، وكلنا يعرف نقائص الطفل المدلل الذى يفسده التغالى فى الحنان كما يفسده التغالى فى النعيم والرفاهية ، كما لا ننسى ما قد يصيب بعض الأطفال المدللين من الأمراض النفسية القوية إذا اضطروا لمفارقة أسرتهم فى وقت من الأوقات . بل قد يصاب بتلك الأمراض بعض الراشدين فيحدث مثلا ألا تقوى الفتاة بعد زواجها على فراق أسرتها ، لشدة تعلقها بها مما يؤدى إلى فساد حياتها الزوجية ، كما قد يمتنع بعض الآباء والأمهات عن السماح لأولادهم بالبحث عن الرزق فى بلاد بعيدة حرصا على بقائهم بالقرب منهم . وعلى ذلك تكون المحبة الجاشة المتطرفة عاملا من عوامل ضعف الأبناء وتأخرهم ، على أن ذلك عيب ليس من الصعب علاجه عن طريق التوجيه والارشاد ، أما المتاعب والأمراض الخلقية التى تنشأ عن قلة العطف فعلاجها أكثر صعوبة .

أما العامل الثانى الذى يكسب الأسرة أهميتها كعامل تربوى قوى فيرجع إلى كونها أصلح ميدان لتنمية جملة فضائل يصعب فى الواقع تنميتها بسهولة فى غير جو الأسرة ، ومن هذه الفضائل الاخلاص والتضحية والثقة بالغير والتعاون ، تلك الصفات التى تعتبر حجر الزاوية

فى بناء الأسرة والتى تعتبر الأسرة البيئة الطبيعية لنموه. فإخلاص الزوجة لزوجها وارتباط أفراد الأسرة برباط المحبة والعطف وتضحية الأم والأب فى سبيل سعادة الأطفال وتعاون الجميع فى العمل تحت لواء الثقة والمودة، كل ذلك من مميزات الحياة العائلية التى تكون الصلات وثيقة بالضرورة بين أفرادها، ويصعب أن نلمسها بالوضوح الذى نلمسها به فى المحيط العائلى. ومن ثم كانت الأسرة أفضل عامل لتنمية ما يمكن اعتباره من أهم الفضائل الاجتماعية بطريقة طبيعية لا تكلف فيها ولا مشقة. على أننا لا ننكر طبعا أن الفضائل المذكورة قد تنمو فى بيئات أخرى كالمدرسة والجيش مثلا، ولكن من الحق أن نقول إن تلك من مميزات الأسرة قبل غيرها وأن نشأتها الأولى ترجع إلى الأسرة.

وليس معنى ذلك أن الأسرة ميدان للفضائل فقط، بل الواقع أن الطفل قد يلتقط كثيرا من العادات الضارة والرذائل عن طريق الأسرة إذا خبث تكوينها، ولكن الأسرة بحكم تكوينها تتطلب التعاون والثقة والوفاء، وهذا مما يرجح كفتها فى ميدان الخير ويجعلها افضل واسطة لغرس المبادئ السامية فى نفس الطفل بقليل من العناء، خصوصا إذا راعينا أن الطفل يقضى سنى حياته المبكرة بين جدران الأسرة ويكون فى تلك المرحلة شديد الحساسية سريع التأثر والتشكل لمرونة جهازه العصبى فتأثر تأثرا قويا بجو الأسرة. ومما يساعد على ذلك أيضا قابلية الطفل الشديدة فى هذه المرحلة للتقيد والإيحاء والمشاركة الوجدانية وهى عوامل قوية تزيد من سرعة امتصاص الطفل للمبادئ والعادات المحيطة به، ثم إن الطفل لشدة تعلقه بأفراد أسرته يكون بالضرورة أكثر قابلية لتقليدهم واتخاذهم مثلا له، ومما ذكر يبدو واضحا قوة أثر المنزل فى التوجيه الخلقى وهو يمتاز فى هذه الناحية على بيئات التربية الأخرى.

هذه بعض العوامل الهامة فى التربية التى شعرت أنها لا تظهر بنفس القوة فى بيئات التربية الأخرى، وقد رأيت أن أشير اليها فى هذه المناسبة بعد أن قرأت فى بعض كتب التربية الحديثة عن المنشآت المختلفة التى أخذت تنافس الأسرة فى الغرب تحت تأثير التغييرات الاقتصادية والاجتماعية مما لا يستبعد أن ينتقل الينا شىء منها. فنظرا لاشتغال كثير من النساء فى المصانع وغيرها واضطرارهم إلى ترك منازلهن من الصباح الباكر حتى المساء قامت منشآت عدة تتولى العناية بالطفل من ساعة ولادته وبعضها يتسلم الطفل بعد العام الثانى ويقضى فى تلك المعاهد اليوم بأكمله حتى تعود الأم من عملها فتحمله معها. ويلاقى الطفل فى هذه المعاهد كثيرا من العناية حيث يشرف على تنشئته المختصات من النساء، ولكن مهما بلغت العناية بالطفل فى هذه المعاهد فانها تفتقر إلى نواح هامة لا تتوافر فى غير الأسرة، وهى وإن كانت تفضل المنازل المهجورة الخالية من الأمهات والمنازل الفقيرة المنحطة إلا أنها لا يمكن أن تجارى المنزل الصالح فى تنشئة الأطفال. ومن الخطأ فى الواقع أن تعم تلك المنشآت التى قد تسهل على الأم ترك وظيفتها الأصلية كما تفقد المنزل عنصرا من أهم عناصر بهجته بينما

لا تقدم للطفل كل ما يتطلبه نموه العقلى والروحى من عطف وحب فى حين تحول تلك المعاهد بين الآباء والأمهات وبين اكتساب صفات هامة وخبرة عظيمة يحصلون عليها أثناء قيامهم بالإشراف على تربية أطفالهم .

فالإصلاح الحقيق لذلك لا يكون عن طريق حرمان الأسرة التى لا تتوافر فيها شروط التربية من الإشراف على تربية الأطفال ، وإنما الإصلاح الحقيق يأتى عن محاولة جعلها قادرة على تأدية وظيفتها الطبيعية وإزالة العقبات من سبيلها، لأنها إذا صلحت كانت أصلح البيئات للعناية بالأطفال .

وهنا نواجه السؤال الآتى : إلى أى حد تعتبر الأسرة المصرية بيئة صالحة للتربية ؟ والإجابة على هذا السؤال تستدعى استعراض أهم الشروط اللازمة لصلاحية الأسرة للقيام بالتربية ويمكن حصرها فيما يأتى :

(١) محبة الأطفال والرغبة فى وجودهم .

(٢) الكفاية المادية والخلقية .

(٣) توافر جو من الاطمئنان والثقة بين جدران المنزل .

أما بخصوص الشرط الأول فتوافره لا شك فيه ، ومما يسترعى نظر الأجنبى فى مصر شدة تعلق الآباء والأمهات بالأطفال ، وإذا كان هناك ما نشكو منه فى هذا الصدد فهو المغالاة فى العطف والتدليل مما ينشأ عنه تأخر الفطام النفسى للطفل ، وشدة اعتماد الأبناء على الآباء مما يضعف روح المغامرة والاستقلال فى النشء .

أما الكفاية المادية والخلقية فلسوء الحظ لا نجدها متوافرة . فمن الناحية المادية نقول إن ما يقرب من ٨٠٪ من المصريين على جانب عظيم من الفقر ، والفقر فى الواقع هو داء هذا البلد العضال الفتاك الذى يعتبر مصدرا لأكثر العلل والأدواء . والإحصاءات تدل على أن نحو أربعة ملايين شخص يعيشون بإيراد يقل عن جنيه واحد فى الشهر ، وأن خمسة ملايين ونصف مليون لا يزيد إيراد الفرد منهم على ثلاثة جنيهات شهريا . وقد قامت الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية أخيرا ببحث حالة الفقر فى الأسر المصرية فى جهات مختلفة ، فتبين لها أن من بين ٣٣٣٣ أسرة درست ١٧٣٤ أسرة أى ٥٠٪ تنفق أقل من ٢٠٠ قرش فى الشهر ، من بينها ١٣٧ أسرة تنفق أقل من ٦٠ قرشا و ١٦٤ تنفق من ٦٠ — ٧٩ قرشا و ٣١٢ تتراوح نفقاتها بين ٨٠ و ٩٩ قرشا . هذه الأرقام البسيطة تعطينا فكرة واضحة عن مبلغ فقر الأسر فى بلادنا . ولا يخفى علينا ما لشدة الفقر من أثر سيئ فى صحة الطفل الجسمية والعقلية والخلقية ... ... تلك هى مشكلة المشاكل فى التربية ، ولا أمل لنا فى الإصلاح قبل أن تتحسن حالة الأسرة من هذه الناحية ... ...

بقى أن أقول شيئا عن العامل الأخير، وهو توافر جو من الاطمئنان والثقة داخل المنزل. هذا الشرط لسوء الحظ يحول دون وجوده فى حالات كثيرة كثرة المنازعات العائلية التى يسببها الفقر من جهة، وسهولة الطلاق وتعدد الزوجات من جهة أخرى بين الطبقات الجاهلة الفقيرة. و ينتج عن ذلك بالضرورة فقدان روح الثقة والاطمئنان وتفكك الأسرة، فينشأ الطفل فى جو مظلم مضطرب لايجد فيه مايحتاج اليه نموه من حنان ورعاية فوق مايقاسى من الجوع والحرمان. وسرعان ما يقذف به المنزل المضطرب إلى الشارع فيكون كالمستجير من الرمضاء بالنار، وفى الشارع يصبح الطفل عرضة للغواية وهو لم يتزود بوسائل الدفاع والوقاية، فيرتكب الشرور ويعيث فى الأرض فسادا. وتدل على هذه الحقيقة دراسات جرائم الأحداث التى تبين أن أهم أسباب التشرد والإجرام يرجع إلى التفكك وعدم التآلف العائلى. وأظن أن أقل ماينبغى عمله فى الوقت الحاضر منع تعدد الزوجات، وتقييد الطلاق حتى نحدد النسل من جهة، ومن جهة أخرى نقضى على بعض عوامل التفكك والنزاع العائلى الذى يكسب الطفل شراسة الخلق ويفقده إيمانه بالحياة.

والآن أخشى أن تؤدى الحقائق المرة التى ذكرتها إلى ضعف ثقتنا بقيمة أغلب الأسر المصرية كعامل تربوى. ولكن تأخر الأسر المصرية وعجزها عن القيام بوظيفتها فى الوقت الحالى لا ينبغى أن يفقدنا إيماننا بأن الأسرة هى أفضل وأقوى عوامل التربية، وإن هذا الإيمان ليحتم علينا أن نعمل جادين مخلصين للأخذ بيد الأسر المصرية الجاهلة الفقيرة عن طريق التعليم وفتح موارد جديدة للرزق وسن القوانين لحماية الأسرة. ثم نضيف إلى ذلك نشر القواعد الصحيحة للتربية، لأن تربية الأطفال ليست من السهولة بحيث نتركها تعالج بطريق المحاولة والخطأ.

أسماء فهمى